صفات عباد الرحمن

١١ ــ التجاوب مع آيات الله

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن، في صحبة عباد الرحمن، الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه، وأثنى عليهم، وشرّفهم بالإضافة إلى ذاته المقدسّة.

ووقفنا في أوصاف عباد الرحمن عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ [الفرقان: ٧٣].

هذه صفة من صفات عباد الرحمن: التجاوب مع آيات الله، قلوبهم مفتوحة، وعيونهم وآذانهم مع هذه الآيات، لا يقعون عليها وقوع الصمّ ولا العميان، ولكن لهم آذان صاغية، وعيون راعية، وقلوب واعية.

ولكن ما هي آيات الله؟

آيات الله نوعان: آيات تكوينيّة، وآيات تنزيليّة.

الآيات التكوينية: هي آيات الله في الكون، آيات الله في الأنفس والآفاق، آيات الله التي بثّها في كل مكان لترشد النّاس إليه، وتدلّهم عليه، كما قال القائل:

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أو كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كلّ تحريكة ... وفي كلّ تسكينة شاهد
وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه الواحد

آيات الله مبثوثة، وعباد الرحمن وأهل الإيمان يتجاوبون معها، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

آيات الله الآفاقيّة والأنفسيّة.. آيات الله في النّفس: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات: ٢١]، وفي الآفاق.. في السماء والأرض: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس: ١٠١].

الذين ينظرون إلى هذه الآيات بأعين عُمي، وقلوب غُلف، وآذان صُمّ، لا ينتفعون منها بشيء، خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فهم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يرجعون، ولا يعقلون.

هذه آيات الله الكونيّة الآفاقيّة.

وهناك آيات الله التنزيلية، التي أنزلها الله على رسله: آيات الوحي، التي ختمها الله بالقرآن الكريم، وتجلّى الله لعباده في كلماته، التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ، فهو يتعرّف إلى عباده بهذه الكلمات من النّور، أو بهذا النّور من الكلمات.

أنزل الله على عبده ورسوله محمد هذا القرآن، ليدلّ النّاس عليه، ليفتح قلوبهم به: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر: ٢٣].

أنزل الله هذا القرآن العظيم، فيه صفاته، وأفعاله، فيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، فيه صفات المؤمنين وصفات الكافرين والمنافقين، فيه بيان مصاير

obeikandi.com

هؤلاء وهؤلاء، فيه ذكر الآخرة والجنّة والنّار، فيه الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فيه الأمر والنّهي، والحكم والأمثال والقصص والمواعظ، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

هذا القرآن آيات الله، أعجز بها البشر أن يأتوا بمثلها، أو أن يأتوا بعشر سور من مثل هذا القرآن أو أن يأتوا بسورة مثله، ولكنّهم غلبوا، وانقطعوا وحقّت عليهم كلمة الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء ٨٨].

كان القرآن هو الآية العظمى، والمعجزة الكبرى لمحمدّ ﷺ، كانت آيات الأنبياء من قبل آيات حسّيّة، كونيّة، ومن شأن الآيات الكونيّة والحسّيّة. أن تنفذ وتنتهي بمجرّد وقوعها، فلولا أنّ القرآن أخبرنا بأنّ موسى ـ عليه السلام ـ انقلبت العصا له حيّة، وأنّ عيسى ـ عليه السلام ـ أبرأ الأكمه والأبرص، ما عرفنا شيئاً عن ذلك، فهي أصبحت معجزة تاريخيّة.

أمّا القرآن فهو معجزة باقية إلى آن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنّه معجزة علميّة أدبيّة عقليّة، ولهذا لمّا طلبوا من النبي ﷺ آية من الآيات الكونيّة، قال لهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]، القرآن آية كافية، لكلّ من كان له عقل وكلّ من كان في صدره قلب: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١) [ق: ٣٧].

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله الدائمة، وآيته الباقية، ضمّن الله كلماته الإعجاز، فهو يدخل إلى العقول والقلوب بغير استئذان، كتاب مُيسَّرٌ للذكر، يفهمه الخاصّ والعام، كُلٌّ على قدر فهمه: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]،

---

(١) وأوّلها: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب..﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

سمعه المشركون فتأثّروا به، وقال قائلهم: والله إنّ لهذا الكلام لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى، وإنّه ليس من كلام الجنّ ولا من كلام البشر.

سمعه الجنّ فأثر فيهم، وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

سمعه جماعة من النصارى فدمعت أعينهم، وخشعت قلوبهم، وآمنوا بالله ورسوله، هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٣ ـ ٨٤].

هذا هو القرآن، يسمعه المؤمنون فتوجل القلوب، وتدمع العيون، وتخشع الأفئدة، كما وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

المؤمنون يسمعون القرآن فيزداد إيمانهم، والمنافقون والزائغون يسمعون القرآن فيزيدهم رجساً على رجسهم والعياذ بالله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

ولذلك كان بعض الصحابة يقول: ما من أحد يُجالس القرآن إلاّ وخرج

obeikandl.com

بزيادة أو نقصان، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. لا يسمعون ولا يعقلون، هذا شأن الناس مع القرآن.

فقس نفسك مِنْ أيّ النّاس أنت؟ مِنْ أيّ الأصناف أنت مع القرآن؟ هل يزداد إيمانك؟ هل تزداد خشيتك؟ هل يتحرّك قلبك؟ هل تدمع عينك؟ أم أنّك تقرأ القرآن كما تقرأ كلام النّاس، لا تتأثّر ولا تنفعل؟

الله تعالى وصف أناساً من أهل الكتاب بقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

كان ابن عباس يقول: إذا قرأتم سجدة (سبحان)[1]، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه!

إنّ على الإنسان المؤمن أن يكون مع القرآن متفتّح القلب، متفتّح الأذن، متفتّح العقل، ولا يقرأه قراءة المنافقين، أو يسمعه سماع المنافقين، الذين قال الله في شأنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦].

هناك المنافقون، وهناك الكفّار المحجوبون: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾..﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦].

---

(١) أي آية السجدة التي في سورة (الإسراء)، وقد سميت سورة (الإسراء) سورة (سبحان) لأنّها افتتحت بهذه الكلمة.

obeikandi.com

على المؤمن أن يفتح قلبه للقرآن، **أن يهتك حجب الغفلة والشهوة والكبر** عن قلبه، فهذه الحجب هي التي تمنع الفهم للقرآن، والتأثر به.

الغفلة: أخطر ما يحجب القلب عن الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، الغافلون عن الله.. عن الآخرة..، عن المصير.. عن رسالة الإنسان في هذه الحياة.

الشهوة: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩]، ذكر الله هذا الصنف بعد صنف آخر أثنى عليه، بعد أن ذكر مَنْ ذكر من النبيّين، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

الكبر: كما قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ [يصرفهم الله عن فهم آياته والتأثر بها] ٱلَّذِينَ .. يَتَكَبَّرُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

على المؤمن إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يفتح عينه وأذنه وقلبه، أن يرتّل القرآن ترتيلاً، أن يحاول التفهم والتدبّر في هذا الكلام الإلهي، فإنّ الله أودع فيه أسراره وحكمه.

القرآن نزل ليُتدبر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فلا بدّ من التدبر.

تدبّر القرآن حتى تحاول أن تتأثّر به، فبعد التدبر يكون التأثّر.

تجاوب مع كلام ربّك إليك، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ

obeikandi.com

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، لو عقل الجبل لتصدّع وخشع من هذا القرآن.

ولكن بعض القلوب أشدّ من الجبال، والصخور والحجارة، كما وصف الله قلوب بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

حاول أن تتدبر القرآن وتتأثر به، قال محمد إقبال رحمه الله: ما نفعتني وصيّة كما نفعتني وصيّة لأمّي، قالت لي وأنا صغير: يا بني اقرأ القرآن كأنّما عليك أُنزل.

وقال بعض السلف: كُنت لا أجد للقرآن حلاوة، حتى منّ اللّهُ عليّ، فأصبحت أتلو القرآن كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، حتى رقاني الله درجة، فأصبحت أقرأه كأنّي أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ ، ثمّ رقيت درجة أعلى وأرفع ، فصرت أقرأه كأنّي أسمعه من المتكلّم به عزّ وجلّ.

درجات بعضها فوق بعض.

حاول أن تقرأ القرآن قراءة من يشفع له القرآن يوم القيامة، في الحديث: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(١).

بعض الناس يشفع لهم القرآن، ويشهد لهم القرآن، وبعض الناس يتلون القرآن والقرآن يلعنهم، هكذا قال بعض السلف(٢): (ربّ تال للقرآن والقرآن

---

(١) رواه مسلم عن أبي أمامة الباهليّ، وتمامه، «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران، فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّما غمامتان ـ أو غيايتان ـ أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ تُحاجّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَة» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان: ٧٨٠، ٨٠٦).

(٢) هو الصحابي الجليل: أنس بن مالك، كما نقل عنه الغزالي في الإحياء (١/ ٢٧٤) ط. دار المعرفة ـ بيروت.

يلعنه)، لأنه يقرأ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وهو من الظالمين.. ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧] هو من أهل الكذب.. «كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» وهو من الذين يقولون ما لا يفعلون والعياذ بالله.

اقرأ القرآن قراءة المتدبّر.. المتأثر.. الذي يقرأ للعمل لا لمجرّد المتعة.

كان ابن مسعود يقول: أُنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به[١].

لا يكفي أن تقرأ القرآن، ولا أن تحفظ القرآن، وإنّما المهمّ: أن تعمل بالقرآن، هكذا كان الصحابة، وهكذا كان السلف، كانوا يحفظون السورة لا يجاوزونها حتى يتقنوها علماً وعملاً، وتطبيقاً على أنفسهم. قال الحسن: كان من قبلكم يعتبرون القرآن رسائل من ربّهم إليهم، يقرأونها باللّيل وينفذّونها بالنّهار.

ماذا تفعل حينما تأتيك رسالة من حبيب أو صديق؟ إنّك تقرأها بعناية، وتحاول أن تعرف كلّ ما فيها حرفاً حرفاً، وأن تنفذ ما طلبه منك إن كان له أهمية عندك، فماذا تفعل بما يطلب الله تعالى منك؟.

إنّنا في حاجة إلى أن نقرأ القرآن، قراءة المؤمنين الواعين الخاشعين، لا قراءة الغافلين، ولا قراءة المستكبرين، ولا قراءة الجاحدين، ولا قراءة الذين في قلوبهم مرض.

إنّنا في حاجة إلى أن نسمع القرآن، لنتخذ منه نبراساً لحياتنا، لنغيّر به حياتنا كما غيّر الصحابة به حياتهم.

أجَل، ما الذي غيّر حياة الصحابة؟ إنّه القرآن، إنّه الذي أحدث ذلك

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١/ ٢٧٥) ط. دار المعرفة ـ بيروت.

الزلزال النفسيّ والاجتماعيّ في الحياة العربيّة، وغيّر الأنفس تغييراً كلياً.

جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ وسأله أن يُقرئه القرآن، فقرأ عليه بعض المُفصّل ـ أواخر القرآن ـ حتى وصل إلى سورة الزلزلة، وفي آخر السورة قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] ، فقال الرجل: حسبي يا رسول الله، لا أبالي أن أسمع غيره [الآيتان وضعتا له القاعدة والقانون: إنّ الجزاء من جنس العمل، وعلى قدر العمل، ولو كان مثقال الذرّة، خيراً أو شرًّا]. فعجب الصحابة من رجل لا يريد أن يتزيد من القرآن، فقال النبي ﷺ: «انصرف الرجل وهو فقيه» ما دام حسبه آية واحدة، وفي قصّة مماثلة قال: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل»(١) ما دام قد فهم هذا.

كان الإمام الشافعي يقول: إنّ في القرآن سورة وجيزة، لو عمل بها الناس لكفتهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣] .

هل قرأنا القرآن ـ أيّها الإخوة ـ كما ينبغي؟ هل استمعنا إليه كما ينبغي؟ هل قمنا بحقّه كما ينبغي؟

نحن نحمد الله أنّ القرآن أصبح يتلى في الليل وفي النّهار، ولكن مَنْ منّا

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٨٧): حديث «الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فقال يكفنني هذا وانصرف، فقال النبي ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه» أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصحّحه من حديث عبد الله ابن عمرو، قال «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يا رسول الله... الحديث» وفيه: «فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبداً، ثمّ أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: أفلح الرويجل أفلح الرويجل».

يسمع القرآن ليتدبّر ويعمل به؟ مَنْ منّا يتأثر بالقرآن إذا سمعه؟ يقول النبي ﷺ: **«اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»**[1]، إذا لم يحضرك البكاء فتكلّف البكاء.. تحزّن[2]، وإذا لم تجد البكاء فابك على نفسك أنّك لا تجد هذه العين الدامعة.

سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدَّته أسماء بنت أبي بكر ـ ذات النطاقين ـ قال لها: يا جدّة كيف كان أصحاب النبي ﷺ إذا سمعوا القرآن أو قرأوه؟ قالت: يا بنيّ كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ، تدمع الأعين، وتقشعرّ الجلود، وتخشع القلوب.

هكذا كانوا، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس إذا سمعوا القرآن، أمّا أن يُقرأ القرآن لمجرّد الطرب.. لمجرّد إمتاع الأسماع، فليس هذا هو المطلوب.

أمّا أن يكون القرآن نسمعه ونحن لاهون، ونحن عنه غافلون، لا نقرأه لنعمل، ولا تقرأه لنحيي به أنفسنا ونحيي به مجتمعنا، فما هذا من شأن القرآن.

ليس هذا هو القرآن الذي أحدث التغيير والزلزلة في المجتمع الإنسانيّ الأوّل.

ولهذا ليس عجباً أن نجد إذاعات غير المسلمين ـ في بلاد الكفر ـ تذيع القرآن!.

لا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة لندن، ولا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة إسرائيل، لأنّهم مطمئنون أنّ القرآن لم يعد يُحرِّك فينا ساكناً أو ينبّه منّا غافلاً.

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٧٧): أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيّد.

(٢) ووجه إحضار الحزن أن يتأمّل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثمّ يتأمّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب (من كلام الإمام الغزالي في الإحياء: ١/ ٢٧٧).

لو قرأنا القرآن وسمعناه كما كان الصحابة والسلف الأوّل، لغيَّر ما بأنفسنا.. لأحدث فينا تلك الثورة الروحية العظيمة.. لجدّدَ إيماننا من جديد.. لجعلنا خير أمّة أُخرجت للنّاس.

نحن في حاجة إلى أن نحدّد موقفنا مع القرآن:

هل نحن متجاوبون مع كتاب الله؟

إنّ الله سيسألنا يوم القيامة عنه، وسيكون شاهداً لنا أو علينا، نخشى أن يقول القرآن: يا ربّ هؤلاء أهملوني، حفظوا حروفي وضيّعوا حدودي، نخشى أن يقول الرسول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]، لم يهجروا قراءته، ولكن هجروا تطبيقه والعمل به، كانوا يقرأونه على الأموات في المقابر، ولا يحكّمونه في الأحياء في المحاكم.

أصبح كتاب الله مهجوراً، وأصبح العمل به مضيّعاً، إنّ الله سائلنا عن هذا القرآن.

عباد الرحمن هم أولئك المتجاوبون مع آيات القرآن، مع آيات الله ـ هم قرآنيون يعيشون مع هذا القرآن، يطبقونه على أنفسهم، لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد سُئلت عائشة (رضي الله عنها) عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[1]، من فتح المصحف عرف أخلاق النبي ﷺ .. إنّه كان صورة تطبيقيّة، كان مثالاً مجسّماً، كان قرآناً حيّاً يسعى بين النّاس على قدمين، كان مصحفاً مفسرّاً، لا يفسّر بمجرّد الكلام بل بالعمل.. بالسلوك.. بالتطبيق.. بالتعامل مع ربّه.. مع أهله.. مع أصحابه.. مع أعدائه.

ليكن كلّ مؤمن ـ يحاول أن يكون من عباد الرحمن ـ قبساً من هذا النّور

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، عن عائشة رضي الله عنها (فيض القدير: ٥/ ١٧٠ برقم ٦٨٣١).

المحمديّ، ليكن له في رسول الله أسوة حسنة، وليكن خلق كلّ منّا: القرآن.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقنا ويجعلنا من أهل القرآن، ويجعل القرآن شفيعاً لنا يوم القيامة.

استغفروا الله يغفر لكم، وادعوه يستجب لكم، إنّه هو الغفور الرحيم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة:

أرسلت إليّ إحدى الأخوات ورقة تقول: في إحدى الجمعات الماضية، خرجت إحدى المصليّات، وكانت تلبس لباساً غير كامل الاحتشام، لا يتفق مع الأدب الإسلامي الذين فرضه الله تعالى على المرأة المسلمة.

وأنا أستغرب هذا في الحقيقة، فالمسلمة التي تأتي إلى هذا المسجد، ولا شكّ أنها تريد وجه الله عزَّ وجلّ وتريد أن تستمع وتنتفع، ولعلها ـ غالباً ـ في فترة انتقال، لعلّ هناك نوعاً من المسلمات يريد أن يُغيّر حياته، فهو في بداية الطريق.

ولذلك نرجو من الأخولات المؤمنات الملتزمات، ألاّ يُسارعن بالإنكار على هذا النّوع، حتّى لا يهربن من مثل هذه المواقف، ودعوهنّ، دعوا مثل هذه الأخت تحضر مرّة ثم مرّة، حتّى يفتح الله قلبها، ويشرح صدرها، ويهديها إلى الّتي هي أقوم.

لا بدّ أن نأخذ النّاس بالتدريج، لا بد أن نتعلم الحكمة والموعظة الحسنة، النّاس جميعاً ليسوا في مرتبة واحدة، إنّ الله وصف الأمّة المصطفاة التي تتلقى القرآن بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، درجات ومراتب يجب أن نراعيها، فمن كان في أوّل الطريق فلنسامحه حتّى يرقيه الله سبحانه وتعالى ـ بهداية منه ـ إلى مرتبة أعلى، ثمّ مرتبة أعلى.

هناك بعض المقصّرين والمقصّرات علينا أن نأخذهم بالرّفق، وإنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا يُنزع من شيء إلاّ شانه»[1]، و«إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه»[2]، علينا أن نأخذهم بالرفق وننصحهم، ليرتقوا من منزلة إلى ما هي أعلى منها.

بعض النّاس (ظالم لنفسه) كما أشارت الآية، أي أنّه يُقصّر في بعض الواجب، ويرتكب بعض المحرمات، ولكنّه قد ينتقل إلى المرتبة الأعلى، وهي مرتبة (المقتصد)، وهو الذي يقف عند حدود أداء الواجبات وترك المحرّمات، لا يزيد على الواجبات شيئاً، ولا يزيد على ترك المحرّم.

ولكنّه قد يرتقي إلى مرتبة أعلى، فيصبح (سابقاً بالخيرات بإذن الله)، لا يكتفي بأداء الواجبات، بل يفعل السنن، ويفعل المستحبات، ولا يكتفي بالوقوف عند ترك المحرّمات، بل يترك المشتبهات، ويترك المكروهات، بل يترك بعض الحلال حذراً من الوقوع في الحرام، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذراً ممّا به بأس»[3].

إنّها مراتب ودرجات، فلا تُطالبوا النّاس أن يكونوا كلّهم في درجة واحدة، ولا تطالبوا المبتدىء بما يُطالب به المتوسط، ولا تُطالبوا المتوسّط بما يُطالب به المنتهي، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف: ١٩].

نسأل الله أن يتوب علينا جميعاً، وأن يُصلح فساد قلوبنا، وأن يُعيننا على

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٧٥ الحديث ٣٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، عن عائشة رضي الله عنه (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٣/ ٧٣).

(٣) رواه الترمذي وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه، والحاكم، عن عطية بن عروة السعدي، ورمز له السيوطي بالصحة (فيض القدير: ٦/ ٤٤٣ برقم ٩٩٤٢).

أنفسنا وعلى الشيطان.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم اغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمنّ سواك، اللهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين، اللهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى، اللهمّ انصر إخواننا المجاهدين في كلّ مكان، اللهمّ واخذل أعداء الإسلام في كلّ مكان، اللهمّ أذلّ دُولهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين،

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آ عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وصلّوا على نبيّكم ﷺ، فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وأقم الصلاة.

opeikandl.com